اللّغات الوطنيّة ومخلفات الفرنسيّة في الجزائر

د. كيفوش ربيع *

جامعة محمد الصديق بن يحي. جيجل، lou_ra10@yahoo.fr

الإرسال: 2020/03/18 **القبول:** 2021/03/29 **النشر:** 2021/06/06.

الملخص: الناظر في الوضع اللغوي في الجزائر يجد أن اللغة الفرنسية قد اكتسحت المنزل والمدرسة والسوق، وبدأت تتحكم في كثير من مناحي حياتنا، وهي في كل يوم تحقق انتصارا في مجال من مجالات الحياة وموقعا من مواقع المجتمع، وإذا احتلت موقعا من هذه المواقع أقصت عنه اللغة العربية. والسؤال الذي أن نسأله أنفسنا ما الذي نريده؟ هل نريد أن ننسلخ عن هويتنا العربية والأمازيغية فنهاجر بعقولنا وألسنتنا إلى الغرب، ونتحول إلى مخلوقات تفكر بعقول أولئك القوم وترطن بأسنتهم؟

إننا مطالبون بأن نحدد علاقتنا بثوابتنا الوطنية بما ينسجم ومصلحتنا العامة، لا بما ينسجم وغاياتنا الآنية، وأن ننظر إلى الأمور باعتبار ما ستؤول إليه، لا باعتبار ما تبدو عليه في اللحظة الراهنة. ومن الأمور التي يجب أن نحدد علاقتنا بها اللغة الفرنسية فلا نسمح لها أن تزاحم لغتنا العربية والأمازيغية، فتكون معولا لهدم هويتنا وثقافتنا بدلا من أن تكون عاملا مساعدا لنا على النهضة والتقدم.

في هذا الإطار جاء البحث، ليبين دور اللغتين الوطنيتين في تحقيق التماسك الاجتماعي في الوقت الراهن، الموسوم بالتعايش بين اللغتين العربية والأمازيغية من جهة، واحتدام الصراع بينهما واللغة الفرنسية من جهة أخرى على كافة المستويات .

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية. اللغة الفرنسية، اللغة الأمازيغية، الهوية، التعريب.

* **المؤلّف المرسل.**

National languages and the remnants of French in Algeria

Abstract: The looker in the linguistic situation in Algeria finds that the French language has swept the home, school and market, and began to control many aspects of our lives, and every day it achieves victory in a sphere of life and a site of society, and if it occupies one of these sites it excludes the Arabic language. The question that we ask ourselves: What do we want? Do we want to shed ourselves from our Arab and Berber identity and migrate with our minds and tongues to the West, and turn into creatures that think with the minds of these people and tune in to their tongues?

We are required to define our relationship with our national constants in a manner consistent with our general interest, not in line with our immediate goals, and to look at matters in terms of what they will achieve, not as what they appear at the present moment. Among the things that we must define our relationship with the French language, so that we do not allow it to crowd out our Arabic and Berber languages, so that it will be a support for the demolition of our identity and our culture instead of being a catalyst for us to renaissance and progress.

In this context, the research came to show the role of the two national languages in achieving social cohesion at the present time, marked by the coexistence of the Arabic and Berber languages on the one hand, and the intensification of the conflict between them and the French language on the other hand at all levels.

Keywords: Arabic language. The French language, the Berber language, the identity, the Arabization

1- مقدمة: لما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية فإنها من العناصر الأساسية المسهمة في الحفاظ على وحدة وتماسك المجتمع، حيث تكتسب أهمية بالغة بالنظر إلى طبيعة الوظائف التي تؤديها في سياقها الاجتماعي والتاريخي والسياسي والثقافي واللغوي. ولا تكون كذلك إلا إذا كانت رمزا للهوية ووسيلة للإبداع الفكري، ومطلبا اجتماعيا ونخبويا يهدف إلى تأكيد السيادة الوطنية والوحدة الوطنية. إن الارتباط باللغة يعود في جوهره إلى سبب واحد، وهو أن علاقة اللغة بالفرد أو المجتمع لم تعد مجرد وسيلة يستخدمها هذا الأخير لتبليغ الأفكار، بل أصبحت رمزا للهوية وصورة للذات تكمل صورة الفرد ، وبالتالي صورة المجتمع ككل.

إن الناظر في الوضع اللغوي لسكان الجزائر يلاحظ أن هذا الوضع يتسم بوضعية لغوية توصف بالتعددية تخلق من مشكلات الاتصال ما يستعصي علينا علاجه؛ فالتحليل اللغوي الاجتماعي للمجتمع الجزائري، يبرز من بين أهم ما يبرز التعددية اللغوية التي تطبع مجتمعنا، تعددية خلفها التراكم التاريخي والثقافي والتحولات التي عرفتها الجزائر ومعها كل شمال إفريقيا.

وعند الحديث عن التعددية اللغوية لا يهم عدد اللغات المتواجدة فيها، وإنما الذي يهم هو الوظيفة التي تشغلها كل لغة في المجتمع. في الجزائر تتقاسم اللغتان العربية والفرنسية مجمل الوظائف والأدوار خاصة في المجالات الرسمية. أما التواصل اليومي نجد خيطا لغويا من العربية العامية والفرنسية وبعض الكلمات الأمازيغية في للمناطق الناطقة بالعربية، وفي المناطق الناطقة بالأمازيغية نجد خليطا من الأمازيغية والعربية العامية والفرنسية.

2- السياسة اللغوية الفرنسية في الجزائر منذ 1830:

كانت اللغة العربية قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، تتمتع بمكانة خاصة سواء على المستوى الرسمي أم الشعبي، كونها لغة الدين والثقافة والتعليم والقضاء والتشريع والإدارة والاقتصاد، ولغة الهوية والحضارة يجتمع حولها الجزائريون بمختلف عناصرهم العرقية والثقافية. ومنذ أن دخل الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، واجهت اللغة العربية هجمات عنيفة تهدف إلى زعزعة الثقة بها، قصدا إلى قطع الروابط اللغوية والدينية بين الجزائريين وتراثهم الديني والحضاري، «وكان العدو الاستعماري بارع الذكاء في محاربته المستمرة المميتة للغة العربية حين كان يغلق كل مدرسة موجودة على بعد كيلومترات ثلاث من أية مدرسة فرنسية غايته تعليم بعض المفردات الكافية لإدارة العمال الزراعيين كما تعلم البغال بعض الكلمات تجعل قيادتها أقل إزعاجا، وكان الاستعمار يدرك مدى الخطورة في ازدهار اللغة العربية

الصحيحة، فأن يتعلم الجزائريون لغتهم الأم يعني التخلص من عار أنهم أيتام ولقطاء ومشردون، ويعني أيضا إيقاظ وعيهم بجدارتهم وكرامتهم » [1] .

تؤكد هذه الشهادة مدى إصرار الاستعمار في القضاء على اللغة العربية، بدأت هذه السياسة اللغوية بالقضاء التدريجي على اللغة العربية، وإحلال اللغة الفرنسية مكانها بوسائل الترهيب والترغيب في آن «وقد أدرك الاستعمار الهدف من فرض لغته على المجتمع الجزائري وما سينجرّ عنه من مسخ وانصهار يفقد المجتمع كل مقوماته وهويته المتميزة » [2]، كانت هذه الهجمات بديلا للاستعمار العسكري أو مصاحبة له، وقد سارت الدعوات ضد العربية في ثلاث اتجاهات أساسية هي:

أ- **الاتجاه الأول:** إحلال لغة المستعمر محل اللغة العربية ومنعها من التداول الرسمي والشعبي، حين حُظرت اللغة العربية وأجبر الناس على استخدام الفرنسية بديلا لها، فقد أيقن الاستعمار الفرنسي أن «اللغة روح الأمة وحياتها، وأنها تمثل أهم عناصرها، وأقوى مقوماتها، وأنها عامل أساسي لازدهار ثقافتها وحضارتها عبر مسارها التاريخي » [3] فحاربوا المدرسة التقليدية المتمثلة في المساجد والزوايا «وأصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية في جميع مجالات العمل والتفكير والاتصال ما بين شرائح المجتمع » [4]، وبذلك تكون فرنسا استعملت كل الوسائل للقضاء على اللغة العربية وإحلال اللغة الفرنسية بديلا لها.

رغم أن هذه السياسة اللغوية لم تنجح في القضاء على اللغة العربية والشخصية الوطنية، إلا أن نتائجها كانت خطيرة على المجتمع الجزائري، في مقدمتها التجهيل والفقر والحرمان والحد من نظام التعليم، فقد حرمت عدة أجيال من التعليم واكتساب المعرفة وظلت تعاني الجهل أمدا غير بعيد. ساهمت هذه السياسة اللغوية في خلق طبقة اجتماعية ذليلة أكدت ولاءها للاستعمار الفرنسي، في مسعاه الرامي إلى القضاء على اللغة العربية. بالفعل أصبحت هذه الفئة تدين للغة الفرنسية من الناحية الثقافية واللغوية «فلا ترى الدنيا إلا من خلال اللغة الأجنبية ولا تستطيع الحديث إلا بها » [5]. بذلك تكون فرنسا كونت فئة من المجتمع تعلقت بها لغويا وثقافيا وتنظر بازدراء إلى الثقافة العربية الإسلامية، وضمنت بذلك ولاءها اللغوي، وولاءها الإيديولوجي «ولربما كان نجاح فرنسا أكبر مما كان، لو أنها علمت بأن هذه الفئة من المتفرنسين مستعدة لضمّ الجزائر إلى فرنسا على شرط المساواة. لقد فقدت هذه الفئة الإيمان بوجود وطن قومي، ويئست من استقلاله، وتنازلت عن تاريخه وماضيه المجيد وبدأت تساوم عليه لبيعه سياسيا » [6]، خاصة من ألئك الذين يعيشون بأجسادهم في أرض الجزائر وبأرواحهم

ووجدانهم في فرنسا، ولا يعتبرون اللغة العربية أداة صالحة لتحقيق منافعهم الفردية أو الفئوية والعوائد الشخصية السريعة .

بدأت هذه السياسة بتسلم الجنرال ديغول الحكم في فرنسا سنة 1959، الذي انتهج سياسة تعليمية خطيرة في الجزائر، تمثلت في انجاز مخطط ثقافي واقتصادي يهدف إلى نشر التعليم بين الجزائريين، وتنفيذ مخططات اقتصادية واسعة تعود فوائدها على المستوطنين والجزائريين أيضا. ورأى ديغول أنه «من الواقعية والحكمة السعي لتطبيق سياسة من شأنها أن تُبْقِي على الجزائر ضمن مناطق نفوذ فرنسا الثقافي إلى جانب التبعية الاقتصادية التي ليس من السهل على الجزائر التخلص منها وقد تكون التبعية الثقافية أهم وأبقى من التبعية الاقتصادية، وقد تؤول في آخر المطاف إلى تبعية ثقافية واقتصادية في الآن نفسه »[7]، لأن جعل الجزائر ضمن مناطق نفوذ الثقافة الفرنسية معناه بقاء الحكم بأيدي الجزائريين المثقفين ثقافة فرنسية والجاهلين بلغتهم وبثقافتهم الوطنية، وهذا ما يضمن التبعية اللغوية والثقافية والاقتصادية في نفس الوقت.

يؤكد الأستاذ عثمان سعدي هذه الفكرة قائلا: إن المتفرنسين «الذين يسيرون الإدارات الجزائرية يؤلفون طبقة ممتازة في الجزائر، سواء بالنسبة لطريقة تفكيرهم أو طريقة معيشتهم. وهذه الطبقة هي التي ستعارض الحتمية التاريخية المسماة التعريب أو العودة إلى شخصية الجزائر التي تعتبر أهم مطلب شعبي، وانتصار سياسة التعريب سيتحول في نظر هذه الطبقة إلى خطر يهدد وجودها، وهذا ما يجعلها تحاربه بضراوة، وتحارب من أجل الإبقاء على تبعية الجزائر لفرنسا في جميع مظاهر الحياة »[8] .

رغم أن العائلات الجزائرية أثناء الهيمنة الاستعمارية كانت ترفض رفضا شديدا إرسال أبنائها إلى المدارس الفرنسية، إلا أن عدد التلاميذ الجزائريين تضاعف مرتين خلال حكم ديغول حتى استقلال الجزائر، كما تضاعف أربع مرات تقريبا عدد الطلبة الجزائريين في جامعة الجزائر في نفس الفترة . وهذا دليل على نجاح خطة ديغول البارعة في ميدان التعليم بالجزائر. هذه السياسة كانت في ظاهرها الرحمة، وفي مضمونها المكر؛ يريد أن يوهم للجزائريين وللرأي العام العالمي أن سياسته ترمي إلى خير الجزائريين بإنارتهم ثقافيا وإنعاشهم اقتصاديا. أما في باطنها فكانت تهدف إلى إبقاء الجزائر فرنسية الثقافة واللغة.

ب- **الاتجاه الثاني:** ناتج عن فشل الاتجاه الأول، فلما وجد الاستعمار أنه ليس بإمكانه الانتصار على إرادة الشعب الجزائري، وإقناعه بضرورة ترك لغته والتحول إلى اللغة الفرنسية، عمد إلى محاربة اللغة العربية باللهجات المحلية، فأخذ يروج للعامية واختلق المسألة

الأمازيغية -اللغة الأصلية لسكان المغرب الكبير- مع العلم أن الدعوة إلى إحلال العامية محل العربية الفصحى ارتضاها جماعة من اللسانيين في المشرق قبل المغرب، «حينما حصلت المغازلة اللغوية فجاءت حركة الاستشراق وبدأت مشروعها التحالفي الواسع بين السياسة الاستعمارية ومناهج فقه اللغة بمفهومه الفيلولوجي القديم وانصبت الأنظار والعناية على اللهجات العربية »[9].

ساعدت هذه السياسة في ازدهار الدارسات اللغوية، لكن مناورات التوظيف لم تكن خافية، وكانت مراميها الحقيقية خدمة السياسة الاستعمارية بأن تهيئ كل الظروف لإطلاق الدعوة إلى نبذ اللغة العربية وإحلال لغته محلها، وبذلك يتمكن المستعمر من القضاء على اللغة العربية. «ولما تمكن الاستعمار من الدول العربية، اتخذ من اللغة العربية هدفا أساسيا لإبعادها عن مجال التعليم، سعيا وراء تمكين لغته وثقافته. وظهرت الدعوات التي تدعو إلى نبذ اللغة العربية »[10]. رغم كل هذه المحاولات، فقد تعذر على الاستعمار إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية. ولم ييأس الاستعمار في محاربة اللغة العربية والدين الإسلامي، وعمل على «الذبذبة والتشكيك حتى يتنكر العربي لعروبته، والمسلم لإسلامه ، ولخلق جنسين يسهل عليهم ضرب أحدهما بالأخر، فيستريحوا منهما معا. ذلك لأنهم يعلمون أن الإسلام هو مساك الأخوة الروحية، فإذا وهى وضعف تأثيره على النفوس نجمت النعرات الممزقة، ووجد دعاة التفريق مداخل للإغراء والإغواء »[11]، وجعل من اللهجات العامية سلاحا ضد الفصحى واتخذ من بعض أبناء العربية في المشرق والمغرب أبواقا ضد العربية الفصحى. لم تكتف هذه الأصوات بالدعوة إلى العامية على حساب الفصحى، لكن تعالت صيحاتها من هنا وهناك تدعو فيها إلى التخلي عن الحرف العربي واستبداله بالحرف اللاتيني. إذا أمعنا النظر في هذه الدعوات والمبررات، وربطناها بسياقها التاريخي وشخوص الداعين إليها، تبيّن أنها ارتبطت بالخطاب الكلونيالي الذي حاول طمس مكونات الشخصية الجزائرية، بتكوين فئة ذليلة من أبناء الجزائر متحزبة لفرنسا ولسياستها الاستعمارية الاستيطانية الهادفة إلى المسخ الثقافي والحضاري، والتدجين ضمن مخططاتها الواسعة من تنصير وتدمير للمقومات اللسانية والدينية والاجتماعية والتاريخية.

واجهت هذه السياسة الإجرامية كثيرا من المعارضة، وتكفل كثير من أبناء الجزائر المخلصين بالدفاع عنها والوقوف في وجه تلك الدعوات الساعية إلى النيل من اللغة العربية، «وكان من نتائجها أن النضال في أول الأمر كان مشحونا بالعنف وبردود الفعل الايجابية والسلبية في الوقت نفسه. بدأ هذا النضال في أول الأمر متمثلا في حركات الإصلاح

الديني والاجتماعي والتربوي »[12]، وكانت هذه الحركات تحث الشعب على تأسيس المدارس والجوامع للإبقاء على لغته وعقيدته حية ، فأنشأت جمعية العلماء وبعض الأحزاب الوطنية في الجزائر عشرات المدارس لتعليم اللغة العربية والثقافة الوطنية.

لعبت المدارس القرآنية والزوايا والمساجد دورا هاما في الحفاظ على اللغة الوطنية ونشرها بين الجزائريين في القرى والبوادي والأرياف، فكانت تعلم دروسا في المبادئ الدينية واللغوية في المساجد للكبار، وقضت على المساعي الفرنسية الهدامة «وبقي المجتمع الجزائري متمسكا بها بفضل الزوايا والمساجد التي أدت دورا متميزا في تمكين الناشئة من لغتهم، حيث بقيت منتشرة في مناطق عديدة فشكلت مراكز تعليمية وشبه مدارس أسهمت بدورها في تعميق الحس الوطني »[13] .

ج- **الاتجاه الثالث:** مع فشل مساعي فرنسا الهدامة، افتعلت الصراع العربي الأمازيغـــــي – السكان الأصليون لشمال إفريقيا - معتمدة المساعي السابقة ذاتها، بدعوى أن الأمازيغية هي اللغة الأصلية لسكان المغرب العربي وسخّرت كل «جهودها ونشاطها على تغذية النزعة البربرية في نفوس أبناء الجزائر والمغرب، من التلاميذ الدارسين للعلم أو العوام العاملين، وتغريبهم للتنكر للإسلام لأنه دين العرب، وبالتنصل من العربية أنها جنسية طارئة غريبة وتحاول إقناعهم بأن هذا الوطن بربري، بسبب قرب الجوار، وصلة البحر المتوسط »[14]. فظهرت على أرض الواقع اللغوي أصوات ناشزة لم تنل وفاق كل الجزائريين، بمن فيهم الأمازيغ الخلص المؤمنون بوحدة الجزائر وقداسة اللغة العربية المرتبطة برسالة النور، فهي قائمة مستقرة ما أقام القرآن واستقر، وراحلة مستنفرة ما ارتحل القرآن الكريم «وليس في هذا الوطن بربري وعربي كما يتوهمون، وإنما هم جزائريون، جمعهم الإسلام على تعاليمه، ووحدتهم العربية على بيانها »[15]. كانت اللغة العربية تنزل منزلة اللغة الأم في شمال إفريقيا فتحظى بكل احترام وتقدير، بل تجاوز الأمر مرتبة الاحترام والتقدير ووصل إلى حدّ التقديس في كثير من الأحيان، وكما كانت العربية تحظى بهذا الاحترام والتقدير كان الجميع ينظر إلى الأمازيغية نظرة خالية من أي أثر للكراهية أو العنصرية أو الرغبة في الاستئصال فكل منهما له مكانته المناسبة ومنزلته الخاصة.

إن الشعب الجزائري شعب مسلم، ولما احتلت فرنسا الجزائر وجدت هذه المقومات راسخة الأصول نامية الفروع فتعهد في الظاهر باحترامها، والمحافظة عليها، لكنه عمل في الباطن على محاربتها ومحوها بالتدريج خلال تواجده بالجزائر بالقوة وبطرائق من التضليل والتغفيل، «وكان المنظرون الاستعماريون يؤكدون أن الإسلام واللغة العربية هما ركيزتا هذه الشخصية،

فقد حاولوا أن يهدموا الركيزة الأولى عن طريق ما يسمى بالسياسة البربرية، كما حاولوا أن يهدموا الركيزة الثانية بإحلال اللغة الأجنبية محل العربية للقضاء علـــى الذاتية »[16]. بدأت هذه السياسة الاستعمارية بمحاربة اللغة والثقافة العربية والدين الإسلامي حتى الموت لأنها المقومات الأساسية المحررة للشعب الجزائري. وهي أيضا البؤرة الضخمة للعمل الفكري كله، في ميدان الصراع بين مقومات الفكر العربي الإسلامي من جهة، وبين عمليات التخريب الضخمة التي قام بها الاستعمار والتبشير المسيحيان في الجزائر من أجل القضاء على خصوصياتها الوطنية والثقافية من جهة أخرى.

تقوم العلاقة بين العربية والأمازيغية على التعايش لا التصادم منذ الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، وخلالها حافظ الشعب على هذه المقومات الطبيعية قرونا عديدة، رغم أن حوادث الدهر قد غالبته فلم تغلبه ولبثت أسباب المناعة تؤلف بين كل العرقيات في هذا الوطن. وما فشل فرنسا في هذا الباب إلا دليل على أن «الدماء البربرية التي مازجت الدم العربي أصبحت عربية بحكم الإسلام، وبحكم العمومة والخوولة الممتدتين في سلسلة من الزمن ذرعها ثلاثة عشر قرنا، مزاج فطري، أحكمت القدرة على تداخل أجزائه، والتحام نسبي وصل التاريخ أطرافه مرتين »[17]. أما القول بأن العلاقة بينهما قائمة على التصادم فهو أمر مفتعل من أعداء الجزائر ومن أبنائها المفرنسيين المتعصبين الذين لا يؤمنون بوجود الآخر، وهم بذلك يخدمون لغة المستعمر وأطماعه أكثر من خدمتهم للغات الوطنية. إن المشكل بين العربية والأمازيغية لم يكن له وجود قبل أن تظهر مصالح خاصة للفرنكفونية في البحث عن حلفاء تنتصر بهم عن اللغة العربية، فظهرت أصوات متطرفة حاولت بذل جهودها لخلق هذا الصراع من العدم يكون الرابح فيه اللغة الأجنبية، فالمشكل إذن مشكل مفتعل لم يُعرف له أثر من قبل. إنما المعروف في التاريخ الجزائري الحقيقي لا المزيف، أن اللغة العربية والأمازيغية قد تعايشتا في وئام وتبادل للأدوار والوظائف على الدوام[18]. مما لا شكّ فيه أن المجتمع الجزائري عرّبه الإسلام، وأن شعبه قد احتضن الدين الجديد، واجتهد لفهم تعاليمه، وسعى إلى نشره ولم يُعرف صراع لغوي بين العرب والأمازيغ منذ الفتح الإسلامي، حتى افتعله الاستعمار الفرنسي للقضاء على وحدة الشعب الجزائري، وترسيخ سياسة الإدماج الاستعماري؛ هذه السياسة جرحت كبرياء الجزائريين، مما جعل ردود فعله قوية كأشد ما تكون القوة، وحادة كأشد ما تكون الحدة.

إن المغرب الكبير عرف أزهى عصوره التاريخية حين اتصل بالحضارة العربية الإسلامية، ولم يتخذ سكانه الإسلام دينا والعربية لغة إلاّ بعد مدّ وجزر، فقاوموا الفاتحين أشدّ مقاومة ودافعوا عن ذاتيتهم وخصوصياتهم الثقافية واللغوية والدينية بكل قوة، لأنهم ظنوا أن

المسلمين كغيرهم من المحتلين الرومان والوندال، والبزنطيين. والحق أن أمازيغ شمال إفريقيا قاسوا من هؤلاء المستغلين شديد الاضطهاد، وظنوا أن العرب الفاتحين جاءوا لاضطهادهم ونهب أموالهم وفرض الاستعباد عليهم. لذلك قابلوا الفاتحين الجدد بعين الحذر واستماتوا في مقاومتهم مدة طويلة. ثم ما لبثوا أن ساندوا الدين الجديد الذي قدّروا تعاليمه القائمة على المساواة والعدالة، حتى دخلوا فيه أفواجا وجماعات، وصاروا بدورهم من دعاته المخلصين[19] . كان الفتح الإسلامي لأقطار المغرب العربي الكبير فتحا تحريريا وتنويريا وحدثا تاريخيا لا يضارع، لم يأت لهذه المناطق فقط من العراق والشام ومصر بدين جديد ولغة فصيحة، بل أتى بكل ذلك وخلق بمرور الزمن ضميرا اجتماعيا له مميزاته الحضارية الخاصة. تلك هي هوية الغرب الإسلامي التي يجب أن تتخذ منطلقا في اختياراته التربوية واللغوية والثقافية والإستراتيجية.

3- الأمازيغية بعد الاستقلال:

إن سوء تقدير وتدبير ملف الأمازيغية في الوقت المناسب وبالشكل المناسب، باعتبارها مكون من مكونات الهوية الجزائرية، أدى إلى عدد من التراكمات السلبية، وتحول المشكل من قضية لغوية وثقافية إلى قضية اجتماعية وسياسية تنذر بالخطورة. وكانت الفرصة مواتية لكل من له مصالح إيديولوجية وأغراض خاصة، لاستعمال هذه الورقة في ممارسة الضغوط والمناورات الخارجية والداخلية. وهكذا تفاقم الأمر واستطاع أن يخلق نوعا من الاحتقان الذي كاد يصل إلى شقّ صف المجتمع وإحداث شرخ كبير بين مكونين أساسيين من مكوناته، لاسيما في ظل عدد من المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية، أهمها ارتفاع الحس القومي عند عدد من الشعوب والأقليات في العالم، وتنامي الوعي بأهمية الديمقراطية وحقوق الإنسان وضمنها حقوقه اللغوية ، وإعادة الاعتبار للغات الأقليات واللغات الإقليمية.[20]

لا يمكن إعتبار الثنائية اللغوية عربية / أمازيغية بندا من بنود المشكل اللغوي، وإنما كانت هنالك أهداف كولونيالية واضحة عملت ما في مستطاعها على شقّ صف الوحدة بين الجزائريين، بزرع فكرة التفرقة بين العنصر العربي والعنصر الأمازيغي وضرب بعضهما ببعض. وقد تم استغلال العامل اللغوي لتحقيق تلك الأهداف وأوهم الناس بوجود صراع بين العربية والأمازيغية. بدأت هذه السياسة تعطي أكلها بعد الاستقلال، لاسيما بعد أن تجندت لخدمتها جامعات ومراكز بحث أجنبية بدعم وتشجيع من أطراف عديدة. يضاف إلى ذلك كله حالة الإهمال واللامبالاة والتهاون في تدبير هذا الملف، والطريقة التي تعامل بها المسؤولون والنخب السياسية مع موضوع الأمازيغية[21]. إلى أن حانت اللحظة المناسبة التي استغلت فيها

العوامل السابقة ، لتظهر فيها مشكلة الأمازيغية وكأنها نتيجة حرب ضروس مع العربية، وأن الصراع اللغوي في الجزائر هو صراع بين هاتين اللغتين الوطنيتين اللتين تعايشتا في وئام وسلام طيلة قرون. وفي خضم هذا الصراع المفتعل صرفت الأنظار عن الطرف الثالث الذي أشعل الفتنة وظل ينتظر فرصة انشغال المتنازعين بما هو قائم بينهما لينقض على الغنيمة وقد رسم للوصول إليها خطته الواضحة منذ البداية. لم يكن الجزائريين يعتبرون وجود ثنائية لغوية بين العربية والأمازيغية مشكلا لسببين على الأقل :

- أنه كان هناك توزيع للوظائف بين اللغتين قائم بشكل تلقائي دون أي نزاع أو اعتراض من أي طرف. فالعربية الفصحى هي لغة العلم والتعليم والقضاء والتشريع ولغة الدولة الرسمية بلا منازع والأمازيغية تقوم بدور لغة التواصل بين الأمازيغ.

- العلاقة بين اللغتين لم تكن علاقة صراع أو هيمنة أو تسلط أو إكراه من هذا الطرف أو ذاك، بل إن التجربة أثبتت أن بينهما تعايش تام يبعث في النفوس شيئا من الدهشة والاستغراب. فالجميع يعتبر العربية لغة الدولة، ويضعها في مكانة خاصة، ويقبل عليها بحب واعتزاز، ولا ينظر إليها على أنها لغة احتلال، جاءت لتمارس الاضطهاد ضد الأمازيغية أو إعلان الحرب عليها .

2- 1 الاعتراف باللغة الأمازيغية في دستور 1996:

استعادت اللغة الأمازيغية مشروعية حضورها في المنظومة التعليمية منذ سنة 1995، وجاء دستور 1996 ليجعل منها لغة وطنية إلى جانب اللغة العربية، ثم جاء القانون التوجيهي للتربية الوطنية رقم 08-04 ليؤكد ضرورة العمل على ترقية وتوسيع تعليم اللغة الأمازيغية[22]. إن الاعتراف باللغة الأمازيغية مكون من مكونات الهوية الوطنية الجزائرية مطلب مشروع لكل الناطقين بهذه اللغة، وعامل للوحدة. تمثل هذه الانجازات صفعة في وجه المروجين للصراع والتصادم بين العربية والأمازيغية، خاصة عندما أقرت الدولة إجبارية تعليم هذه اللغة في المدارس، وخصصت لها حيزا في الإعلام المسموع والمرئي، وأُنشأت المحافظة السامية للأمازيغية التي عملت على امتصاص قدر من حدة المشكل اللغوي، رغم أن هذه المجهودات اعتبرت خطوة نحو تصحيح الأخطاء السابقة، إلا أنها لا تكفي، بعد أن تجاوزت القضية حدودها اللغوية والثقافية وباتت في حاجة إلى حلّ سياسي.

2-2 ترسيم الأمازيغية في دستور 2016:

أقرّ التعديل الدستوري الأخير (2016) إضفاء صفة الرسمية على اللغة الأمازيغية، لتصبح بذلك اللغة الرسمية الثانية التي يقرها الدستور الجزائري إلى جانب العربية. فالعربية تظل اللغة

الرسمية للدولة، تعمل على حمايتها وتطويرها وتنمية استعمالها. والأمازيغية لغة رسمية ثانية باعتبارها رصيدا مشتركا لكل الجزائريين بدون استثناء. مع تفعيل الطابع الرسمي لها وكيفية إدماجها في مجالات الحياة العامة ذات الأولوية، كي تتمكن من القيام مستقبلا بوظيفتها بصفتها لغة رسمية. ويكون ذلك بإتباع الأسس التي تقوم عليها سياسة تدبير الشأن اللغوي والتخطيط له، من خلال الأكاديمية الجزائرية للغة الأمازيغية التي يوكل إليها وضع القوانين التنظيمية والتطبيقية التي تتلخص خطوطها العريضة في النقاط التالية[23]:

- تنظيم العلاقة بين اللغتين الوطنيتين الرسميتين وتحديد وظيفة كل واحدة منهما بناءً على مجموعة معايير موضوعية، وذلك تجنبا للتكرار غير الضروري في إسناد الوظائف من جهة، وتلافيا لأي نوع من الصراع أو تنازل النفوذ بين اللغتين مما قد ينعكس سلبا على التعايش بين مكونات المجتمع ويهدد وحدته وتلاحمه ويتيح الفرصة أمام اللغة الأجنبية لاستغلال هذا الصراع لمصلحتها.

- إتباع منهجية التدرج في إدماج الأمازيغية بعدد من المجالات للاعتبارات المعروفة منها: الحاجة إلى مزيد من الوقت والجهد والعمل الدؤوب، لتهيئة هذه اللغة وتنمية قدرتها وإنتاجها المعرفي والمصطلحي والأدبي، وحصولها على تراكم علمي ضروري وتوحيد معجمها ووضع قواعدها النحوية والصرفية والصوتية، وجمع شتات لهجاتها المتفرقة بين عدد من المناطق في الجزائر، وتكوين الأطر التعليمية والتربوية الكافية والمؤهلة.

- فتح تخصصات للبحث العلمي الأكاديمي الخاص باللهجات الأمازيغية لدراسة تراث هذه اللغة وثقافتها وآدابها بشكل علمي بعيدا عن النزوات والأيدلوجيات، وتخليص دراسة الثقافة الأمازيغية من شوائب الدراسات الفلكلورية والاستشراقية ذات النزعة الاستعمارية.

3- الازدواجية اللغوية عربية فصحى / عامية :

إن البيئة اللهجية التي يعيش فيها المتعلم في البيت والشارع تختلف في معظم مستوياتها عن لغة التعليم. هذا الوضع جعل المتعلم يعيش حياته المدرسية بين لغتين ولهجة، تمنعه من امتلاك اللغة الفصحى، وتجعله غير قادر على معرفة عناصرها وكيفية تطويع هذه العناصر واستخدامها، ويكون غير قادر على استحضار العناصر المناسبة للعبارة المناسبة التي يريد التعبير عنها، لأن وجود العامية والفرنسية يقلل من فرص تعلم اللغة الفصحى «ومن فرص تلقي واستيعاب عناصرها اللفظية والمعنوية، أو من فرص استخدام هذه العناصر، أو ركود طوائف منها وصعوبة استحضارها في الذهن وقت الحاجة إليها، ومن ثم عدم وجود أي فاعلية لها في مجالات التعبير المختلفة »[24]. أفرزت هذه الوضعية وجود هوة بين الوسط

الاجتماعي والوسط التعليمي، فأصبحت لغة التعليم بعيدة كل البعد عن واقع متعلميها وحياتهم، «ولم يحضّر المتعلمون مسبقا لمجابهة الاختلاف القائم بين لغة البيت وما تتطلبه المدرسة في ميدان التفاعل اللغوي في الصف، مما يمكن أن يعرقل التلميذ على المشاركة في العملية التعليمية . فالاختلافات في الضوابط اللغوية بين البيت والمدرسة، قد يفسر القصور في السيطرة على لغة المدرسة »[25]، ويخلق عند المتعلم آثارا نفسية بالغة الضرر، فيقع دائما في حيرة وتردد في فهمه للغة التي يسمعها في المدرسة، ويجد نفسه بين لغتين تتجاذبانه، مما يجعله غير قادر على تحديد الاتجاه الصحيح، واللغة التي يود استعمالها، غير مطمئن لتعبيراته وتراكيبه، غير واثق مما يقول، سريع التراجع عن إجاباته .

والقضاء على أضرار العامية، يملي على المجتمعات العربية العمل على أن ترتقي بالعامية إلى الفصحى، وتعمل على محاربتها تدريجيا فتترك خصائصها الواحدة تلوى الأخرى حتى تنتهي باندماج تام في الفصحى، من خلال مشروع نهضوي يعمل على توطين العلم والتقنية في البلاد، من خلال الإصلاح التربوي الحقيقي الذي يجعل الناشئة يتعلمون باللغة العربية ويفكرون بها ويبدعون بها، وتهيئة الظروف ذات الإستراتيجية الواحدة التي تتكون من حلقات مترابطة يعتمد بعضها على بعض للوصول إلى الهدف المنشود. والوقوف ضد الحملات التي تستثمر الوضع الحرج للغة العربية في هذه المرحلة التاريخية، وما يصاحبه من حملة العولمة الثقافية التي «تقصد النيل من كل الثقافات الإنسانية ذات الجذور الحضارية المتأصلة وفي مقدمتها الثقافة العربية، وتتوسل هذه الحملات العدائية دائما بالعامل اللغوي وكثيرا ما تتعلل بأن العربية الفصحى مفارقة للواقع الحي المعيش »[26]، وتحاول أن تثبت الوهم بالدعوة إلى أن معالجة هذه المسألة يكون من خلال :

- استبدال اللغة العربية بلغة أجنبية، هذا القول ساقط من أصله، لأنه فناء للذات بفناء اللغة. فاستبدال اللغة العربية باللغة الأجنبية يعني الخروج من الهوية بكل مكوناتها، وكل موقع تطرد منه الفصحى لتحل اللغة الأجنبية مكانها يعد انهزاما للفصحى وخطرا على الثقافة العربية، ويضعف الأمة ويفقدها هويتها.

- يرى أنصار هذا الرأي أن خير علاج لمشكلة الازدواجية يكون بنوع من الملاقاة بين الفصحى والعامية، هذا الرأي يحتاج إلى تدقيق لأن المقصود به في النهاية التخلي التدريجي عن الفصحى، وبقبول هذا المستوى الجديد بين الفصحى والعامية نكون قد تنازلنا طواعية عن جزء من خصائص الفصحى لصالح العامية.

- ورأى فريق ثالث أن علاج الازدواجية اللغوية يكون باعتماد لغة المثقفين، التي ليست إلا اسما جديدا للعاميات داخل أقطار الوطن العربي، أو داخل كل قطر من هذه الأقطار.

- بينما يرى فريق رابع أن الخلاص من الازدواجية التي يعيشها المجتمع هو إحلال العامية محل الفصحى في كل مجالات الحياة، وهذا معناه أن تتحول إلى لغة تربوية ثم إلى لغة إبداعية يكتب بها الفكر، في هذا الرأي أيضا دعوة إلى قطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

تمثل هذه الدعوات انعكاسا للواقع المأساوي والظروف الصعبة التي مرت بها اللغة العربية، كان لها نتائج سلبية لا تزال أثارها ماثلة للعيان، فكراهية اللغة العربية والقائمين على أمرها من الآثار التي نبتت في النفوس، ثم نمت وقويت حتى امتدت إلى بعض الناس ممن يعدون من المدافعين عن العربية والثقافة العربية الإسلامية . يقول الدكتور عبد السلام المسدي: «إن بعض الأغرار من العرب أنفسهم قد حملوا التاريخ على أن يعيد نفسه فانصاع برهة وتأبى ثم تأبى، وكانوا في ذلك متسارعين إلى إرضاء أساتذتهم الغربيين، متهافتين على استدرار الشهادة منهم بأنهم نجباء وبأنهم أوفياء، ولكنهم لم يخلصوا للعلم فخذلهم بعد أن أمهلهم ردحا من الوقت »[27]. ما إن نالت الدول العربية استقلالها، حتى أخذ اللغويون الغربيون يزينون لبعض أبناء العربية أن لغتهم متخلفة وقاصرة على مواكبة روح العصر، وأن عليهم كي يكونوا متمدنين وراقين أن يهجروا الحروف العربية ويكتبوا بالحروف اللاتينية حتى يتمكنوا من نقل أفانين النهضة الغربية إلى بلدانهم. وثمة طريق آخر تجلى في الدعوة إلى هجران الفصحى وإحلال العامية محلها بحجة أن الفصحى صعبة وغير مفهومة، في حين أن العامية هي لغة الجماهير. ولمّا كان عصرنا هو عصر الالتزام، فعلى المفكر أن يخاطب الشعب بلغته التي يمارسها وهي العامية .

لو كان من السعة والقوة ما يسمح للعامية بالتعبير عن أفكار الناس لما كان للفصحى وجود، ولقيت نفس المصير الذي لاقته كثير من اللغات التي تفرعت إلى لهجات أو لغات قائمة بذاتها. ولكن نظرا لعجزها عن الوفاء بحاجات الناس ومطالبهم تراجعت وبقي مكان الفصحى محفوظا، لغة للعلم والدين معا، بمقدار سيطرة أصحابها. لهذا السبب يتوارى المتربصون بالفصحى، والمنادون باستخدام العامية، وإن أعلنوا عن أنفسهم لحظة ما فهو من قبيل المكابرة وعدم الإعتراف بقوة الفصحى، لأن واقع الفصحى أكبر من أن ينال، وأقوى من أي مناصرة. على المجتمعات العربية تجاوز عقدة تاريخها المليء بالقيم السلبية المتعب بثقافة النسيان، إلى اتخاذ موقف حضاري مسؤول وهو التفكير الجدي في رسم سياسة لغوية واضحة المعالم للنهوض بمستوى اللغة العربية. أما الإقرار بالوضع الحالي «وتكريس اللهجة حملا

للرسالة الثقافية وبديلا عن اللغة القومية لهو الانتحار الجماعي على عتبات التاريخ »[28]، فاللغة الفصحى هي عامل توحيد في حين أن العامية عامل تفرقة وتباعد بين المجتمعات العربية. وإذا كان المنظرون الغربيون يخشون وحدة البلاد، لأن في هذه الوحدة خطر يهدد مصالحهم. ويخشون في الوقت نفسه أن تتشبع هذه الشعوب بقيم ماضيها المجيد لأن فيه حافزا يدفعهم إلى الاعتزاز والابتكار والإبداع .

4- التعريب في الجزائر:

لم تفقد اللغة الفرنسية مكانتها التي فرضت على الجزائريين أثناء الاحتلال بل زادت انتشارا، واكتسحت مجالات لم تكن تحلم بالوصول إليها على أيدي أصحابها الأصليين. وأصبحت تحظى بمرتبة تفوق اللغة العربية، ولا شك أن السبب في هيمنة الفرنسية وتراجع دور العربية وانحساره بعد الاستقلال، هو أن اللغة الفرنسية قد أصبحت وحدها لغة الترقي في السلم الوظيفي والاجتماعي وتحسين ظروف العيش الذي هو عصب الحياة. فكان من الطبيعي أن يتخلى الناس عن لغتهم العربية لأنها لا تؤهلهم للمناصب الرفيعة والمكانة المحترمة في المجتمع[29].

تقتضي مصلحة الجزائر تحقيق المعنى الصحيح والعميق للاستقلال التام بالتخلص من هينة اللغة الفرنسية وما تحمله من استلاب لغوي وثقافي يؤدي حتما إلى تبعية اقتصادية واجتماعية وسياسية. أو الاستمرار في الخضوع لهيمنة اللغة الفرنسية التي كانت تمثل في ذاكرة الجزائريين لغة الاحتلال بكل ما تعنيه الكلمة من طمس لهويته ولغته وثقافته. وفي حال اختيار التحرر والاستقلال من التبعية اللغوية وتحقيق الاستقلال في أبعاده الشمولية والتشبث باللغة الوطنية. هل كان أمام الجزائريين من لغة وطنية أخرى أقوى من العربية الفصحى ليتحصنوا بها في صراعهم مع الاستعمار؟ وأصلح في الوقت ذاته لتعويض اللغة الفرنسية في التعليم والإدارة والتشريع والإعلام وكل مرافق الحياة الأخرى، التي تحتاج إلى لغة مكتوبة ذات تجربة طويلة ورصيد تاريخي وحضاري، ومقومات تضاهي في قوتها ورمزيتها الوطنية والروحية اللغة الفرنسية.

المقصود بالتعريب؛ الطريقة التي استعملت لإدخال اللغة العربية وتوظيفها في مختلف الميادين، بحيث يدار العمل فيها باللغة العربية كتابة ومخاطبة، ليصبح التعويل عليها في الأداء المهني والتداولي في الشأن الديواني وإدارة الشأن الوطني العام في الدولة. فالتعريب في الحقيقة هو تعليم اللغة العربية وتعبئة المجتمع بثقافة عربية تمهد وتسهل عملية نشر العربية في طيات المجتمع المختلفة[30] . قامت اللجنة المشرفة على التعريب بوضع برنامج لتحقيقه.

ومما طبق عليه هذا البرنامج تجربة التعليم بكل مراحله وبكل تخصصاته، وشُرع في تعريب التعليم في بلادنا سنة 1962. أما التعليم العالي فقد شرعت الجامعات الجزائرية في تعريب العلوم الاجتماعية في الموسم الجامعي 1981/1980 استجابة لضغط الشارع[31].

منذ ذلك الوقت، ورغم الإقرار بأن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة والرسمية للتعليم، وأن استخدامها أمر إجباري. فإن الفرنسية كانت وما تزال إلى يومنا هذا لغة التعليم في الشعب العلمية والتكنولوجية ، فالطالب في الشعب العلمية لا يتعلم إلا بالفرنسية وكأنه في جامعة فرنسية، يتكلم بالفرنسية ويكتب ويفكر بها، ولا يعمل إلا بالفرنسية، بدعوى أن اللغة العربية تفتقر إلى المصطلحات والمراجع العلمية مما يحتم على التعليم العالي أن يستعين باللغات الأجنبية في تدريس المواد العلمية، وكأن العربية لا عهد لها بالمخترعات والمكتشفات الحديثة، وهذا الادعاء باطل. لأن القدر المنجز حتى اليوم من المصطلحات العلمية يؤكد أن اللغة العربية لم تكن عاجزة عن مواكبة التقدم. فاللغة العربية استطاعت أن تقتحم مجالات علمية معقدة «وبنت حضارة راقية كانت اللبنة الأولى للحضارة الغربية، ولم يجد مستعملوها آنئذ أية صعوبة في توظيفها، واستطاعت أن تستوعب كل المعارف الإنسانية الوافدة عليها »[32].

على المستوى الرسمي دائما، لا يقتصر استعمال اللغة الفرنسية في التعليم العالي، فكثير من المؤسسات الرسمية سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية تستعمل اللغة الفرنسية. بالإضافة إلى مساحة من فضاء الإعلام المرئي والمكتوب، فالمجلات والجرائد الأكثر انتشارا في الجزائر مكتوبة باللغة الفرنسية. رغم أن العربية الفصحى أصبحت اللغة الرسمية في الدستور بإجماع الشعب الجزائري، إلا أن الفرنسية ظلت عمليا هي اللغة التي تحظى لدى أجهزة الدولة بامتياز خاص، وتحتل مساحة أكبر في الاستعمال الرسمي. وتعتبر الفرنسية في نظر البعض لغة العلم الحداثة والحضارة «إن الذين يحاربون تعريب التعليم ويضعون العقبات في سبيله بحجة عجز اللغة العربية وتقصيرها، كمن ينادي بالتخلي عن الجنسية القومية، إذا اتصف قومهم بالعجز والتقصير، وشتان ما بين من يرى في نفسه عجزا وتقصيرا فيسعى إلى تغيير ذلك إخلاصا وهو قادر على التغيير مالكا لإمكاناته، ومن يؤثر السلامة والراحة ويرى أن أسهل السبل للتخلص من تهمة العجز والتقصير أن يغير اسمه ويتنكر لذاته »[33] . وكانت خلاصة ما تدعو إليه كل التيارات التي دأبت على الدعوة لتعريب التعليم والإدارة، هو إعطاء السيادة والأولوية للغة العربية، مع فتح الأبواب لتعلم اللغات الأجنبية الأكثر جدوى ونفعا،

دون الإلتزام باللغة الموروثة عن الاحتلال. أما الإدارة فلابد من مخاطبة المواطنين ومعاملتهم باللغة الوطنية والرسمية لا بلغة أجنبية عنهم[34].

لم يكن الطريق الذي سلكه التعريب سهلا ويسيرا لقد أعاقته في مسيرته مصاعب جمة متشعبة ومتداخلة منها؛ أن التعريب يفسر على أنه كان يقصد به محاربة الأمازيغية والقضاء عليها، وهم يعلمون حق العلم، أنه موجها بالأساس ضدّ الهيمنة الفرانكفونية؟ ولماذا كانت التهمة الرئيسية في الموضوع موجهة ضدّ العربية ولا توجه إلى الفرنسية التي زادت رسوخا بعد الاستقلال؟. يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله « وقد فرنسْنا أنفسنا بعد الاستقلال أكثر مما فرنسَنا الفرنسيون وفي كل يوم نزداد ارتماء في أحضان فرنسا الفرنكفونية، وربما كنا أكثر اعتزازا بالإسلام والعروبة والجزائر أيام الاستعمار منا أيام الاستقلال »[35]. كان للغة العربية من الوزن الاعتباري لدى كل فئات المجتمع أيام الاستعمار أضعاف ما لها منه الآن، بعد عقود من الاستقلال. وقد حلت العربية محل الفرنسية بعد الاستقلال، لأنها اللغة الوطنية الوحيدة المهيأة لذلك لاعتبارات كثيرة منها:

- كونها لغة تتوفر على كل المواصفات المطلوبة للقيام بهذا الدور، فهي اللغة الرسمية التي تتبناها الدولة وتستعملها كل أجهزتها ومؤسساتها .

- كونها ذات رمزية وحمولة حضارية خاصة، لارتباطها التاريخي بالدين الإسلامي الذي هو الدين الرسمي للدولة، وما يتعلق بهذا الدين من ثقافة وعلوم وتراث فكري وحضاري.

- كونها الوعاء الذي أفرغ فيه التاريخ والثقافة المتنوعة، والرابط الأساسي الذي يجمع الشعب ويقوم بدور التواصل والتلاحم بينها.

- كونها اللغة الوحيدة القادرة، برصيدها وتجربتها الطويلة ومؤهلاتها العالية على مواجهة لغة الاحتلال ومقاومتها والتصدي لها.

هذه المزايا التي توفرت للعربية الفصحى، كانت وراء اختيارها لتكون اللغة الرسمية للجزائر. فهل كان يصلح مثلا أن تسند وظيفة اللغة الرسمية بعد الكفاح المرير ضدّ الاحتلال بوجهيه الاستيطاني والثقافي واللغوي للغة الفرنسية. أما اللهجات المحلية فلا يوجد معيار علمي لتفضيل لهجة على أخرى. وأما الأمازيغية فلم تكن أثناء الاستقلال أحسن حالا من اللهجات العربية. فهي إلى سنوات قليلة بدأت تخرج من طور الشفوية إلى الطور الكتابي وما تزال تخطو نحو التهيئة والإعداد لتصبح قادرة علميا على القيام بمثل هذه الوظيفة. فأمام الأمازيغية مراحل طويلة لتتحول إلى لغة معيارية وموحدة بين كل المستعملين، وصالحة للتداول بين كل المستعملين[36]. فضلا عما يتطلبه الأمر من تراكم في مجال الإنتاج والتأليف المكتوب الذي يسد

كل نواحي الحياة العلمية والفكرية لمن يريد استخدام هذه اللغة استخداما نافعا ومجديا في التعليم والتثقيف والبحث.

أما لماذا لم تنل الأمازيغية حظّها الكافي من العناية والاهتمام باعتبارها لغة وطنية ؟ فهذا في الحقيقة سؤال مشروع، تقع مسؤوليته على كل الأطراف. ومهما يكن الأمر فإنه لا نحمل المسؤولية للغة العربية ولعملية التعريب الذي استُعملت كل العراقيل والضغوط الداخلية والخارجية لإفشاله ومحاربته، والنتيجة هي أنه بعد مرور أكثر من نصف قرن على الاستقلال لم تستطيع اللغة الوطنية الرسمية أن تتغلب على هيمنة اللغة الفرنسية في أهم القطاعات الحيوية. لأن الاستقلال الحقيقي سيظل منقوصا إذا لم يستكمل باستقلال لغوي وثقافي تقوده اللغة الوطنية المعترف بها من طرف الجميع بالكفاءة والأحقية والأهلية.

5- اللغة والهوية:

اللغة مؤسسة اجتماعية بامتياز، تستعمل للاتصال بين الأفراد والجماعات، ونقل الآراء والأفكار بينهم، فاللغة هي كينونة الإنسان وماهيته. وأصل اللغة عند الفرد نابع من طبيعته الاجتماعية التي تلازمه، ومن حاجته إلى التواصل مع الغير.

إن اللغة هي الأساس الأول في التكوين الثقافي والاجتماعي والسياسي لأي مجتمع من المجتمعات، إنها ظاهرة اجتماعية بامتياز، وهي التي تبلور أفكار المجتمع وتعمل على تشكيلها، إذ لا فكر بدون لغة. وهي التي تعبر عن رؤيته الخاصة للعالم وتميزه عن بقية المجتمعات الأخرى [37]، وهي ذاكرته التي تحفظ تاريخه وحضارته وثقافته وعاداته وتقاليده. وهي ليست جزءا من كيان المجتمع فقط، بل هي أيضا جزء من كيان الفرد وبصمة من بصماته التي تحدد شخصيته وهويته بكل دقة[38]. من أجل هذه الاعتبارات كلها، التي تؤكد ارتباط اللغة عامة واللغة الوطنية بالهوية، أصبح علماء النفس والتربية والاجتماع واللغة ينادوون بضرورة استعمال اللغة الأم في التعليم، لاسيما خلال المراحل الأولى في تكوين شخصية المتعلم. فكلما « كان التكوين المعرفي في اللغة الأم هزيلا لا يقوم على التصدي للغزو الخارجي ومغرياته العلمية، يجد المتعلم نفسه منسلخا عن كل ما يشده إلى ماضيه وأصالته، فإن هوية ومرجعية أي مجتمع لا يمكن للمسيرة الواعدة الاستغناء عنها، كما أن انعكاسات الانتماء إلى الهوية أو عدمه هي انعكاسات ذات أبعاد جسمية بالنسبة للفرد أو المجتمع » [39]. إن اللغة مكون أساسي من مكونات المجتمع؛ إذ لا يمكن تصور وجود كيان لأمة تستحق هذا الاسم ليست لها لغتها الخاصة التي ترمز بها لنظرتها المتميزة للعالم، وتستوعب ثقافتها وفكرها وتعبر عن خصوصيتها التاريخية والحضارية. واللغة أكثر من ذلك، لا تحدد هوية الأمة أو الوطن أو الشعب فقط،

لكنها تحدد هوية الشخص والفرد، فطريقة الكلام ونبرة الصوت، والأسلوب الخاص في التعبير كافية للتعرف على الشخص المتكلم [40].

مما لا شك فيه أن دعم اللغة الأم وإثرائها هما اللذان يمكنان من نمو نفسي متوازن، ومن تفتّح ذهني خصب، كما أن هذه اللغة هي التي تمكّن من تجنب القطيعة بين المدرسة والوسط الأسري للطفل، وتمثل وسيلة اندماج وتلاءم فعالة. وقد توصلت دراسات جادة في هذا الصدد إلى أن تعلم اللغة الأجنبية يكون بعد تخطي الطفل للفترات الحساسة في نموه النفسي، وألاّ تكون اللغة الأجنبية في علاقة تصادم وصراع مع اللغة الأم. وقد أكدت هذه الدراسات كذلك أن الثنائية اللغوية في الجزائر وما نتج عنها من اتجاهات تعليمية متناقضة، لا تخضع لمعايير موضوعية في اختيار لغة التعليم، إنما تعكس المصالح الإيديولوجية المتصارعة[41].

أما بخصوص الانتماء القومي، فقد كان لوجود اللغة الأجنبية في التعليم أثره الواضح في الثقافة الجزائرية، إذ خلق أجيالا من المواطنين تتجه بولائها لفرنسا التي تعلمت بمدارسها فبقيت غريبة عن الثقافة والمجتمع الجزائري. وقد أفرز هذا التعليم أجيالا غير متجانسة من المتعلمين، فنشأت هذه الأجيال لا تعرف إلا القليل عن وطنها، بينما تعرف الكثير عن فرنسا التي تبتعد عنها جغرافيا وتقترب منها وجدانيا. وعليه فإن خطر التعليم الأجنبي يتمثل في توجيه انتماء الجزائريين إلى ما يسمى بالدولة الأم. ومن مظاهر سيطرة التعليم الأجنبي على الفكر والشخصية، أن لغة الأوساط الاجتماعية الراقية ظلت اللغة الفرنسية، لا فقط كلغة تخاطب، وإنما أيضا كتعبير عن قوالب فكرية مستوردة[42].

إن الذي نريد الإلحاح عليه في سياقنا المخصوص هذا، هو أن القائمين على مصيرنا لم يخطر ببالهم بعد، أن الضرورة اليوم تدعو إلى تصور قرارات تحمي اللغة العربية من اكتساح العاميات لمجالها الحيوي، وإلى رسم خطوط الفصل بين التمسك من جهة أولى باللغة الفصحى كجامع موحد، واحترام المنظومات الأدائية المعبرة عن فطرة الاكتساب الأمومي وعن خاصية الانتماء البديهي ضمن دائرة الاحتضان الأولى من جهة ثانية، لأن التطور والتقدم لا يكون إلا باللغة الأم، يقول عبد العزيز بن عبد الله : «إن مواكبة حضارة العصر الحديث لن تكتمل بالنسبة إلينا معشر العرب إلا إذا توازت فيه ذاتيتنا العربية مع إنسانيتنا الحضارية ، والمقوم الجوهري لهذه الذاتية هو اللغة العربية"[43] عكس ما يدعي أعداء العربية أن اللحاق بالركب الحضاري والتطور العلمي لا يكون إلا باستعمال اللغة الأجنبية.

«إن موضوع الهوية أصبح اليوم يستلزم منا طرحا جديدا وذلك في ضوء سببين اثنين، أولهما تغير المشهد الثقافي الإنساني بما أفضى إلى انقلاب مرجعياته، وثانيهما تصدر العامل

اللغوي أمام سائر المقومات التي منها تتكون منظومة قيم الانتماء الحضاري. لقد كان بديهيا أن الهوية ترتكز على أركان تاريخية يتصدرها الانتماء الحضاري إلى أصول سلالية واحدة، وهي تلك التي تمثل خريطة الأجناس والأعراق، ثم تأتي اللغة كعنصر معبر عن ذاك الانخراط السلالي، ثم تأتي بعد ذلك المعتقدات التي طالما كانت الجامع بالضرورة في مختلف الثقافات » [44] . تعيش الجزائر وضعا لغويا وثقافيا متأزما أثّر تأثيرا بالغا في هوية مواطنيها، شككت فئات منهم في انتمائها العربي والأمازيغي، وساعد على إيجاد نعرات عرقية حينا واتجاهات متطرفة أحيانا، وقد كان لمكانة اللغة العربية واللغة الفرنسية في المدرسة خاصة والمجتمع عامة دور محوري في الأزمة اللغوية والثقافية التي تعيشها الجزائر.

رغم الصمود الذي تحدت به اللغة العربية أمام اللغة الفرنسية وهيمنة ثقافتها في عهد الاحتلال، فإنه لا مناص لنا من الاعتراف بأن الجزائريين منذ الاستقلال، لم يوفقوا التوفيق الكامل في سنّ سياسات تنموية وثقافية ولغوية تنهض باللغة العربية النهضة المأمولة، وتدرأ عنها مزاحمة اللغة الفرنسية، وتعصم الجزائريين من الاستلاب والتبعية اللغوية والثقافية لفرنسا. « إن الانشغال بالاقتصاد والسياسة والقانون والأمن لا ينبغي أن يتناسى اللغة العربية وأمنها، باعتبارها رافعة اقتصادية وتنموية، وعلاوة على كونها وعاء ثقافيا للخصوصيات الفاعلة » [45]. فاللغة العربية مهددة في وجودها وبقائها أكثر من أي وقت مضى، وقد أراد لها خصومها أن تعاني من الإضعاف والموت البطيء، في وقت تعمل الجهات المعادية للعربية على إضعافها في جميع الواجهات، على رأسها هزم الجزائريين في هويتهم وخصوصياتهم العربية والأمازيغية.

6- خاتمة:

إن مشكلتنا اللغوية من المسائل التي ينبغي أن ينظر إليها المختصون وأصحاب القرار بشيء من الاهتمام، مع العلم أنها ليست حديثة العهد في الجزائر، فتعريب التعليم وازدياد الجمهور القارئ، وتطور وسائل الإعلام، وتعدد فرص اللقاء والاحتكاك، هذه الجهود من شأنها أن تذيب الفروق بين اللغة الفصحى والعامية. يضاف لها رسم سياسة لغوية واضحة المعالم والأبعاد لمنظومتنا التعليمية تكون فيها اللغة العربية أداة لصهر مشاعرنا في بوتقة المفاهيم والقيم الجديدة، فالعوائق اللغوية التي يواجهها المتعلمون تفرض العناية بحاجات المجتمع اللغوية التي تحتاج إلى حلول جذرية من داخل اللغة حتى تستطيع أن تحقق للمتعلم الاكتفاء الذاتي من لغته وإلا اضطر إلى الاقتراض أو الاستعارة من اللغات الأخرى.

إن الأزمة اللغوية الحالية لا تعود إلى اللغة العربية أو اللغة الأمازيغية، بقدر ما تعود إلى إشكالية التعامل مع هاتين اللغتين من قبل أبنائها الذين يحاولون إلقاء المسؤولية عليهما،

وإعفاء أنفسهم من هذه الأزمة التي نحياها يوميا. والعمل على تجاوز المزالق الكثيرة والخطيرة للتبعية اللغوية والثقافية الناتجة عن هيمنة اللغة الفرنسية في كثير من المجالات الرسمية وغير الرسمية، وهذا خطر عظيم، ستكون له انعكاسات سلبية خطيرة على مستقبل اللغة ومستعمليها.

تقع مسؤولية تعميم استعمال اللغة العربية على كاهل مؤسسات كثيرة في المجتمع، فهي بالإضافة إلى المدارس والمعاهد والجامعات مسؤولية الإعلام صحافة وإذاعة وتلفزيون، ومسؤولية دور النشر والمؤسسات الثقافية الأخرى في المجتمع. وإذا كنا نطمح إلى أن تتضافر جهود كل هذه المؤسسات والمراكز، فلا أقلّ من أن يكون التضافر أولا ضمن جدران المدارس والجامعات بين المعلمين والمتعلمين.

رغم الجهود المبذولة للنهوض باللغات الوطنية، إلا أن النتائج المحققة لا تعكس مستوى التطلعات والآمال، والقضاء على هذه المشكلة يستلزم تضافر جهود المختصين، للتكفل بالمشاكل المطروحة وتقديم حلول عاجلة لها، ويعمل الجميع على تحقيق ما يلي:

- تنمية تعليمنا الوطني، بإتباع المنهجية التي تعتبر التخلص من الاستعمار لا يكون بمجرد التحرر السياسي، بل بالقضاء الكلي على مناطق نفوذه ورواسبه التي مازلت تعيش في النفوس والعقول.

- إعادة النظر جذريا في توجهنا التربوي والثقافي واللغوي ووضع اختيارات بديلة .

- الاعتزاز باللغات الوطنية لا يكون إلا بإتباع سياسة التعريب الشامل والمرحلي وإلزامية استعمالها في كل القطاعات والمؤسسات.

- التأثر بالثقافات الأخرى والأخذ عنها يجب أن يكون مدروسا لا متروكا للصدف أو لعوامل قد لا تستجيب لحاجات المجتمع الجزائري .

- تكييف كل ما هو أجنبي مع الخصوصيات الاجتماعية والثقافية والدينية واللغوية للمجتمع.

6-مراجع البحث:

1- الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الجريدة الرسمية، قانون رقم 08- 04 المؤرخ في 23 جانفي 2008، المتضمن القانون التوجيهي للتربية الوطنية.

2- الضبيب أحمد محمد ، **اللغة العربية في عصر العولمة**، مكتبة العبيكان، ط2، الرياض، 2006.

3- المسدي عبد السلام ، **العرب والانتحار اللغوي** ، دار الكتاب الجديد المتحدة ،ط1 ، لبنان ، 2011.

4- المعتوق أحمد محمد ، **الحصيلة اللغوية، أهميتها، مصادرها، وسائل تنميتها**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996.

5- سعدي عثمان ، **قضية التعريب في الجزائر** ، دار الطليعة ، بيروت، 1967.
6- طالب الإبراهيمي أحمد ، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، ط1، بيروت، 1997.
7- عبد المولى محمود، **مشكلات التعريب**، الشركة الجديدة للطباعة والنشر، ط 1، تونس، 2010.
8- عطا إبراهيم محمد، **المرجع في تدريس اللغة العربية**، مركز الكتاب للنشر، ط1، القاهرة، (د، ت).
9- غلاب عبد الكريم، **التعريب ودوره في تدعيم حركات التحرر في الوطن العربي**، في التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1982 .
10- غلفان مصطفى، **في اللسانيات العامة تاريخها طبيعتها موضوعها مفاهيمها**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2010.
11- وزناجي مراد، **حديث صريح مع الدكتور أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ**، منشورات الحبر، الجزائر، 2008.

- **المجلات:**

12- بن عبد الله عبد العزيز، **تطور الفكر العلمي ولغة التقنيات في المغرب منذ العصور الوسطى**، مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للثقافة والفنون، مكتب تنسيق التعريب، الرباط ، م10، ج1، 1973.
13- تعوينات علي، **اللغة الأولى ولغة التعليم وأثرهما في التحصيل الدراسي وفي قدرات وكفاءات الطالب**، مجلة تنمية الموارد البشرية، جامعة فرحات عباس ، سطيف ، الجزائر، ع1 ، 2004 .
14- ستيواح يمينة، **الوضع اللغوي العام وتداخل اللغات عند الشباب الجزائري**، مجلة لغات، قسم التعليم المكثف للغات ، جامعة الجزائر، ع 3، 1999.
15- صحراوي عز الدين، **اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر، ع5، 2009.
16- عبيد عبد اللطيف، **اللغة العربية ومجتمع المعرفة صيانة الهوية وبناء المستقبل**، مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، ع 2013، 72.
17- يحياتن محمد ، **من أجل تصور ديناميكي للتعريب تأملات حول تعريب التعليم العالي**، مجلة لغات، قسم التعليم المكثف للغات ، جامعة الجزائر، ع 3، 1999.

المراجع الأجنبية:

18- M . S . Bel Ochi, **La convertion Des Berbères à L'Islam** , M.T.E , Tunis, 1982.
19- O. Ouzegane, **Le meilleur Combat** , Julliard, Paris, 1962.

7- هوامش البحث:

1 O. Ouzegane, Le meilleur Combat . Julliard, Paris, 1962 , P 37

2 عز الدين صحراوي، اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر، ع5، 2009، ص 86.

3 المرجع نفسه، ص 84.

4 عبد الكريم غلاب، التعريب ودوره في تدعيم حركات التحرر في الوطن العربي، في التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،1982 ، ص 153، 154.

5 أحمد محمد الصبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، مكتبة العبيكان، ط2، الرياض، 2006، ص 72.

6 محمود عبد المولى، مشكلات التعريب، الشركة الجديدة للطباعة والنشر، ط 1، تونس، 2010 ، ص 28.

7 المرجع نفسه ، ص 29.

8 عثمان سعدي، قضية التعريب في الجزائر ، دار الطليعة ، بيروت، 1967، ص 46 — 48 .

9 عبد السلام المسدي، العرب والانتحار اللغوي، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1، لبنان ، 2011 ، ص 31.

10 إبراهيم محمد عطا، المرجع في تدريس اللغة العربية، مركز الكتاب للنشر، ط1، القاهرة، ص 80.

11 أحمد طالب الإبراهيمي، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط1، بيروت، 1997 ، ص 179.

12 محمود عبد المولى، المرجع السابق، ص 25.

13 عز الدين صحراوي، المرجع السابق، ص 88.

14 أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق ، ص 178.

15 المرجع نفسه، ص 179.

16 عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 154.

17 أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 57.

18 عبد العلي الودغيري، لغة الأمة ولغة الأم عن واقع اللغة العربية في بيئتها الاجتماعية والثقافية، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2014، ص 161، 162.

19 M . S . Bel Ochi, La convertion Des Berbères à L'Islam , M.T.E , Tunis, 1982, PP 63 — 141.

20 عبد العالي الودغيري ، المرجع السابق ،ص 140.

21 المرجع نفسه، ص 141.

22 الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الجريدة الرسمية، قانون رقم 08- 04 المؤرخ في 23 جانفي 2008، المتضمن القانون التوجيهي للتربية الوطنية، الباب الأول ، الفصل الثاني، المادة 4.

23 عبد العالي الودغيري ، المرجع السابق ، ص 170- 189.

24 أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية، أهميتها، مصادرها، وسائل تنميتها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1996، ص 162.

25 علي تعوينات، اللغة الأولى ولغة التعليم وأثرهما في التحصيل الدراسي وفي قدرات وكفاءات الطالب ، مجلة تنمية الموارد البشرية، جامعة فرحات عباس ، سطيف ، الجزائر، ع1 ، 2004 ، ص 197، 198.

26 عبد السلام المسدي، المرجع السابق، ص 24.

27 المرجع نفسه ، ص 32.

28 نفسه، ص 33.

29 عبد العالي الودغيري، المرجع السابق ، ص 149.

30 يمينة ستيواح، الوضع اللغوي العام وتداخل اللغات عند الشباب الجزائري، مجلة لغات، قسم التعليم المكثف للغات، جامعة الجزائر، ع 3، 1999، ص 82.

31 محمد يحياتن، من أجل تصور ديناميكي للتعريب تأملات حول تعريب التعليم العالي، مجلة لغات، قسم التعليم المكثف للغات ، جامعة الجزائر، ع 3، 1999، ص 152.

32 عزالدين صحراوي، المرجع السابق، ص 100.

33 المرجع نفسه، ص 96.

34 عبد العالي الودغيري ، المرجع السابق ، ص 143.

35 مراد وزناجي، حديث صريح مع الدكتور أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، منشورات الحبر، الجزائر، 2008، ص 122.

36 عبد العالي الودغيري ، المرجع السابق، ص 153.

37 مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة تاريخها طبيعتها موضوعها مفاهيمها، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2010، ص 12.

38 عبد العالي الودغيري ، المرجع السابق، ص 272.

39 صحراوي عز الدين، المرجع السابق، ص 93.

40 عبد العالي الودغيري ، المرجع السابق، ص 272 ،273.

41 عبد اللطيف عبيد، اللغة العربية ومجتمع المعرفة صيانة الهوية وبناء المستقبل، مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، ع 72، 2013 ، ص 82، 83.

42 المرجع نفسه، ص 83.

43 عبد العزيز بن عبد الله، تطور الفكر العلمي ولغة التقنيات في المغرب منذ العصور الوسطى، مجلة اللسان العربي، المنظمة العربية للثقافة والفنون، مكتب تنسيق التعريب، الرباط ، م10، ج1، 1973، ص 45.

44 عبد السلام المسدي، المرجع السابق، ص 68.

45 عبد اللطيف عبيد، المرجع السابق، ص 86.